

وظيفة الحذف في انسجام النص وتماسكه

د. ملياني محمد / جامعة وهران

يعدّ الحذف ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية¹، تميزت بها اللغة العربية؛ لأن خصائصها الأصلية تميل إلى الإيجاز، وليس الغرض من الحذف تحقيق الإيجاز فحسب، بل هو وسيلة تعبيرية قصدية، يُعَدّل في تركيبها عن الأصل إلى بنية تركيبية أقل لفظاً وأغزر معنى.

وإذا كان الحذف تقنية أسلوبية، وطريقة خاصة في الأداء يطلبها المقام، فإنّ الذكر يعتبر أصلاً كذلك وبخاصة إذا كان الموضوع والمقام يطلبان الإسهاب والتفصيل والبسط، ومنه فإن النوعين (الذكر والحذف) ضروريان في عملية التواصل وتنويعها.

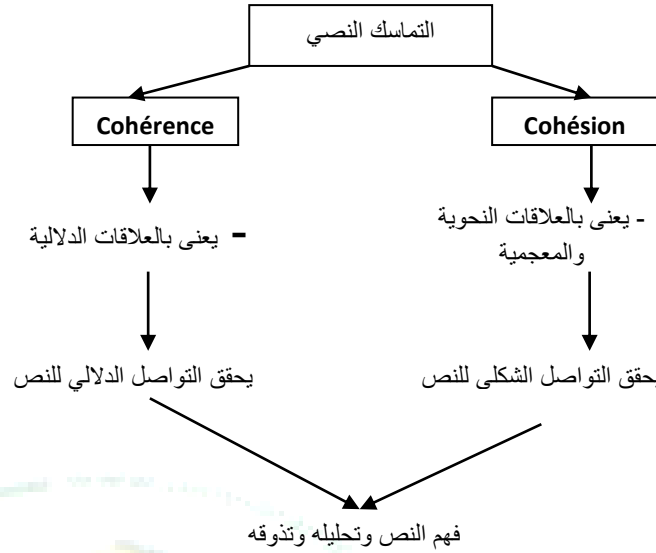
والحذف ظاهرة شائعة بين تحاليل مجموعة من أبواب النحاة، وغنية بالمعطيات، ويستعصي الإمساك بها لتعدد مواقعها، ينضاف إلى هذا أنه يتداخل فيها ما هو نحوي بما هو بلاغي، وما هو لغوي بما هو نظري، كما لفتت انتباه علماء النص، باعتبارها إحدى الطاقات المحركة للأدبية، نظراً لما تحدثه من حيوية ونشاط داخل العمل الفني.

أ- **مفهوم التماسك:** إن أول ما يصطدم به الباحث في مقارنته مفهوم التماسك، هو تعدد المصطلح وتداخل المفاهيم، ممّا يقتضي تقديم عرض موجز يتم فيه التفريق بين مصطلحين معتمدين كثيراً عند علماء النص، وهما: التماسك (cohesion) والانسجام (cohérence).

فيقصد مصطلح (cohésion) تلك العلاقات النحوية أو المعجمية بين العناصر المختلفة في النص، وتكون هذه العلاقة بين جمل أو أجزاء

¹ - ينظر ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : طاهر سليمان حمودة، ص04.

مختلفة، في حين يقصد بمصطلح (cohérence) العلاقات الدلالية¹،
ولتوضيح ذلك نستعين بالشكل الآتي:



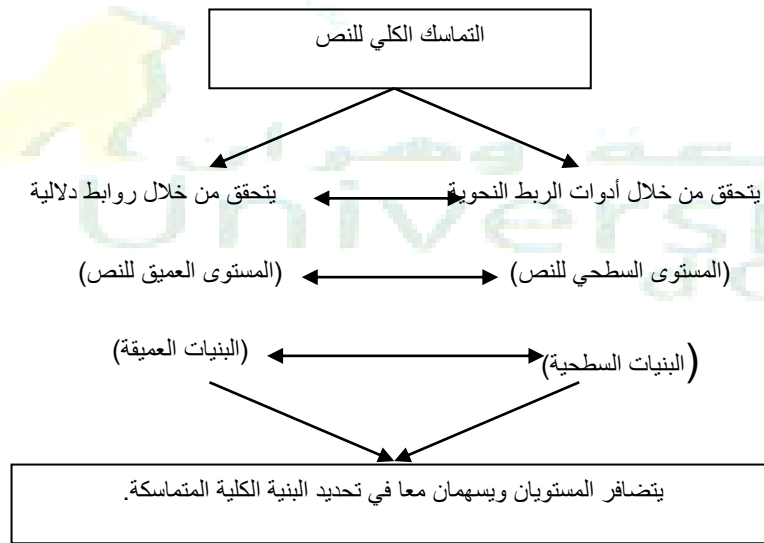
ويتبين مما سبق أن مصطلح التماسك يتجاذبه مفهومان، الأول يتأسس على الروابط الدلالية، بينما يقوم المفهوم الثاني على العلاقات الشكلية التركيبية، والملاحظ أن المفهومين يتضافران معا لتحقيق التماسك بمفهومه الواسع لفهم النص وتحليله وبالتالي تدوقه.

وتفاديا لهذا الاختلاف في إطلاق المصطلح على مفهوم التماسك، وبما أنّ المصطلحين يتضايقان ويتضافران معا لتحقيق التماسك بطبيعته الشكلية والدلالية، أو بعبارة أخرى يربط بين المكونين الشكلي والدلالي، حيث يتمثل الأول في الصورة المنطوقة للجملة، والثاني في صورتها العميقة، ارتأينا أن نوظف مصطلح (Cohésion) بمعنى التماسك في هذا المقال؛ لأنّ التماسك

¹ - ينظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: د. صبحي إبراهيم الفقي، ج 1/95.

يؤدي معنى العلاقات والأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين أجزاء الجملة، وبين جمل النص و-أيضا- بين فقراته.

وفي ضوء هذا الفهم نخلص إلى أن النص وحدة كبرى شاملة، تتشكل من أجزاء مختلفة تتصل بمستويين: - الأول أفقي (نحوي) ويتشكل من وحدات صغرى تربط بينها علاقات التماسك النحوية. - والثاني عمودي (دلالي) ويتشكل من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية¹، و"يصعب أن يعتمد في تحليل النص على نظرية بعينها، وإنما يمكن أن تتبنى نظرية كلية تتفرع إلى نظريات صغرى تحتية تستوعب كل المستويات"². ويمكن تمثل هذا الفهم في الشكل التالي:



¹ - ينظر علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات: أ.د. سعيد حسن بحيرى، ط.1، سنة 1424هـ/2004م، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع-القاهرة- ص110.

² - المرجع نفسه، ص 108.

إذا كان علماء النص قد وجهوا اهتمامهم وعنايتهم إلى التماسك النصي بوصفه عنصرا هاما من عناصر التحليل الذي له حضور قوي في أي نص، فأين تكمن هذه الأهمية يا ترى؟

ب- أهمية التماسك

أولى علماء النص التماسك عناية كبيرة؛ لأنه يربط بين أجزاء الجملة، وأجزاء النص، وهذا الرابط شكلي دلالي- كما سبق ذكره- إلا أن التماسك لا يربط بين أجزاء الجملة باعتبارها بنية لسانية مستقلة، وإنما داخل البنية الكلية للنص؛ لأن عزلها يؤدي إلى تفسير جزئي لما تحمله من دلالات، قد تحقق امتدادا داخل الكل وفق دلالات الجمل السابقة واللاحقة. ويؤكد هذه الفكرة صلاح فضل بقوله: "علماء النص يولون التماسك عناية قصوى، ويذكرون أنه خاصية دلالية للخطاب، تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقاتها بما يفهم من الجمل الأخرى."¹

ومما تقدم نجمل أهمية التماسك في النقاط الآتية:²

- التركيز على كفاءات تركيب النص بوصفه صرحا دلاليا.
- والبحث عن أدوات التماسك في النص.
- والربط بين أجزاء الجمل والفقرات.
- وإذا كان النحاة قد ركزوا على التماسك على مستوى الجملة فقط؛ لأنهم وجهوا عنايتهم كاملة إلى العملية الإسنادية وما يتعلق بالجملة وما تطلبه

1 - بلاغة الخطاب وعلم النص : د.صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس 1992م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص263.

2 - ينظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : د. صبحي إبراهيم الفقي، 100/1

من ابتداء وفاعلية، وضرورة وجود الرابط في جملة الصلة والخبر جملة، ولم يتعدوا حدود الجملة إلا نادرا، فإن علماء النص المحدثين ركزوا على التماسك النصي على مستوى أجزاء الجملة وعلاقتها بالجمال الأخرى، وعلاقة الجملة بالفقرة، وعلاقتها بالنص بوصفه بنية كلية.

ولم يغيب هذا الإدراك الواعي لمسألة التماسك عن ذهن المفسرين - أيضا- بحيث كان لهم حضور قوي تشهد له مؤلفاتهم، وهذا ليس أمرا غريبا؛ لأنهم فسروا كلام رب العالمين، فقد وقفوا على التماسك النصي في النص القرآني بين الحرف والحرف، والكلمة والكلمة، والكلمة والجملة، والكلمة والفقرة، والجملة والجملة، والسورة والسورة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر فخر الدين الرازي (ت606هـ) الذي أظهر براعة كبيرة في ربط الآيات السابقة بالآيات اللاحقة¹، وأصفى ما تقدمه في هذا المجال دليلا قوله: "... ثم إنه تعالى افتتح سورا أربعة بعد هذه السورة بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾²، فأولها سورة الأنعام، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾³، واعلم أن المذكور هاهنا قسم من أقسام قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁴ في الفاتحة؛ لأن لفظ العلم يتناول كل ما سوى الله، والسموات والأرض والنور والظلمة قسم من أقسام ما سوى الله، فالمذكور في سورة الأنعام كأنه قسم

1 - ينظر الترجمة للإمام الرازي في مقدمة التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، ط.1، سنة 1412هـ/1991م، دار الغد العربي-القاهرة- 18/1.

2 - سورة الفاتحة/02.

3 - سورة الأنعام/1.

4 - سورة الفاتحة/2.

من أقسام ما هو مذكور في أول سورة الفاتحة...¹، وهذا تطبيق واع لما يصطلح عليه اليوم بالتماسك بين فيه الرازي التماسك الدلالي بين السورتين. ولا تقل جهود البلاغيين شأنًا في هذا المجال عن جهود سواهم، ويأتي في مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي رأى أن سر الإعجاز يكمن في الاتساق العجيب بين ألفاظ القرآن الكريم²، ويقول: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك... وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبها ما معناه وما محصوله"³. يومئ عبد القاهر في هذا النص يومئ إلى التماسك الشكلي والدلالي معا من خلال حديثه عن التعليق والسببية، ويشكل هذان الجانبان أدوات هامة يُعتمدُ عليها في تحليل النص، يضاف إليها أدوات أخرى، نحاول الوقوف عندها.

وفي رحاب هذا الفهم فإن فهم بنية النص، ينهض على تحليل العلاقات الداخلية التي أسهمت في نسجه، وهي التي يتم فيها اختراق أفقية المنطق الخطي نحو منطق عمودي نطلب من خلاله إدراك الدلالات المنطوية والمتوارية في ثنايا المكتوب، وهذا لخلق السياق العام الضروري لفهم النص⁴.

¹ - التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ط.3، د.ب، دار إحياء التراث العربي-بيروت- 180/1.

² - ينظر دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 37.

³ - المصدر نفسه، ص 44.

⁴ - ينظر من النص إلى التأويل: محمد ديوان، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 60-61، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس 1989م.

غير أنّ النص لا يمكن سبر أغواره وتسليط الأضواء على دروبه الملتوية إلاّ بحضور متلق خبير ومتطور، يدرك جيدا كيف يمكن أن يخلق نوعا من التضاييف بين ما تسكت عنه اللغة وما تثبته، ويصنع الألفة بينها.

وأصفي قول يؤكد هذا الفهم: "وإنما المعنى أنّ هناك مشابهاة خفية بدق المسلك إليها؛ فإذا تغلغل فكرك. فأدركها فقد استحققت الفضل، ولذلك يشبه المدقق في المعاني كالفائض على الدر".¹

ولن يتأتى له ذلك إلاّ عن طريق الانسجام والتماسك بين أجزاء النص الواحد، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذه المسألة بقوله: "وما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضيلة عمل إلاّ لأنّهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى ما لا يحتاج إلى غيرهما، ويحتكمان على من زاولهما والطالب لهما في هذا المعنى ما لا يحتكم ما عداهما. ولا يقتضيان ذلك إلاّ من جهة إيجاد الائتلاف في المختلفات، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التي تنسب إلى الدقة، فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلّما كانت أجزاءها أشدّ اختلافا في الشكل والهيئة، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم، والائتلاف أبين، كان شأنها أعجب والحدق لمصورها أوجب".²

ويتضح من كلام عبد القاهر الجرجاني أنّه لا يتحقق الانسجام في النص من انسجام المعاني ووضوحها فحسب، بل من اختلافها وغموضها أيضا، وأنّ هذا الاختلاف دليل على حدق المنشئ الذي يتصرف في المادة اللغوية والتي تتغير بفعل المجاز والتركيب الذي يخضع لكيفيات عديدة نطق بها العرب، وأنّ المتلقي يجتهد في إيجاد وحدة وألفة بين المختلفات والمتنافرات.

1 - أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص 130.

2 - المصدر السابق، ص 127.

- أدوات التماسك

إنّ الحديث عن أدوات التماسك شائق وطويل، رغم التباينات الموجودة بين أقوال العلماء في حصرها وتحديدتها في الغالب، إلا أن هذا التباين يبقى سطحيا، وتبقى الأدوات المشتركة بينهم تشكل جهازا نظريا موحدًا أساسا، يؤطره هدف واحد مشترك يتمثل في تماسك وانسجام أجزاء النص.

صدر كتاب موسوم بـ " التماسك في الإنجليزية " Cohesion in English " لهاليدي ورقية حسن، وقد تناول هذا المؤلف خمس أدوات وهي كالآتي:

1- المرجعية (Référence).

2- العطف (Conjonction).¹

3- التماسك المعجمي (Cohésion Lexicale).

4- الحذف (Ellipse).

5- الإبدال (Substitution).

وتعد وسائل التماسك النصي أهم الركائز الرئيسة التي عول عليها علماء النص الغربيون في تحليل النص الفني، ولأهميتها نكاد نجدتها شائعة في مؤلفاتهم، الأمر الذي جعل هاليداي ورقية حسن يخصصان لها مؤلفا خاصا - الذي سبق ذكره-، لكن في زخم هذه المفاهيم والأدوات الإجرائية المعتمدة

1 - تؤدي أدوات العطف وظيفية التماسك النصي- يمكن مراجعة ذلك بالتفصيل في " بناء الجملة العربية: محمد حماسة عبد اللطيف، ط.1، سنة 1416هـ/1996م، دار الشروق-مصر- ص 158 وما بعدها.

في التماسك النصي، هل أدرك أسلافنا بوعي هذه المفاهيم؟، أو تنبهوا إليها وتناولوها بمسميات ومفاهيم أخرى تخضع لطبيعة اللسان العربي؟، وبعبارة أخرى هل يوجد في التراث العربي المرتبط أساسا بالممارسة النصية إسهامات قابلة لأن تدرج في ما يطلق عليه اليوم "لسانيات النص" و"نحو النص"؟

نروم في فحص هذه القضية بيان أوجه الإجراء التي عمد إليها الدارسون العرب القدامى في تناولهم مسألة التماسك النصي ووسائله، وتقتضي طبيعة المقال أن يقتصر في تسليط الأضواء على وسيلة واحدة تشترك فيها اللغات الإنسانية-كما سبق الذكر- ألا وهي ظاهرة الحذف بوصفها بؤرة إنتاج المعنى، أضف إلى ذلك أنها من العوامل الرئيسة التي تحقق التماسك النصي.

وجه العرب القدامى عنايتهم إلى قضية تماسك أجزاء النص من خلال تناولهم لظاهرة الحذف التي كانت مدار دراسة النحويين واللغويين والبلاغيين والمفسرين، وإذا كان المقام لا يسمح أن نقف على جوانب عديدة مما قالوه في هذه المداخلة، فإننا سنبين منه في هذا الموضع ما يتلاءم والتماسك النصي.

ونبدأ الحديث بالسيوطي (ت911هـ) الذي تنبه إلى أن الحذف يحقق التماسك بين عناصر النص، فأطلق عليه "الاحتباك"، ويقول عنه: "ومأخذ هذه التسمية من الحبك، الذي معناه الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب شد ما بين خيوطه من الفرج، وشدّه وإحكامه بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق. وبيان أخذه منه أن مواضع الحذف من الكلام شبهت بالفرج بين الخيوط، فلما أدركها الناقد البصير بصوغه، الماهر

في نظمه وحوّكه، فوضع المحذوف مواضعه كان حائكا له مانعا من خَلَلٍ يطرقه؛ فسَدَّ بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه من الحسن والرونق"¹. ويقول في موضع آخر: "أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت في الأول"²، ونلاحظ أن السيوطي قد أدرك أن الحذف يحقق التماسك بين أجزاء النص.

كما وقف الزركشي (ت794هـ) على ما يحقق التماسك النصي، وأطلق عليه "الحذف

التقابلي"، ويعرفه بقوله: "أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه"³.

ولتوضيح ما سبق نورد نظرة علماء القرنين الرابع والخامس الهجريين لمفهوم ظاهرة الحذف، ونستهل الحديث بأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت384هـ) الذي عدّ الحذف أحد وجهي الإيجاز؛ لأنه "إسقاط كلمة للاحتذاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام"⁴، وأكد هذا الفهم القاضي عبد الجبار في كون الحذف "يحسن في اللغة إذا كان الثابت من الكلام يدلّ على المحذوف"⁵، ويتبين لنا أن نظرة هؤلاء العلماء لم تخرج عن تلك الضوابط العقلية التي تحكم الحذف.

ويبدو أنّ قول الرماني أكثر إيضاحا؛ لأنه أرجع الدلالة إلى بعدين هاميين، يتمثل الأول في "الحالية" والثاني في ما يتضمنه "فحوى الكلام"، وبذلك

1 - الإتيان: السيوطي، ج3/183.

2 - المصدر نفسه، 3/182-183.

3 - البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج3/129.

4 - النكت في إعجاز القرآن: الرماني، ص70.

5 - تنزيه القرآن عن المطاعن: القاضي عبد الجبار، ص164.

يكشف الرماني عن دلالات لا تتصل بمفردات تتراس تراصاً آلياً عن كيفيات الكلام؛ لأن هذه "الحالية" التي توحى بالدلالة ليست متصلة بمجرد آلية التراس قدر ما يبعثه السياق من إحياء دلالي، ويمكن أن نقول الشيء ذاته عن قوله "فحوى الكلام" فهي الأخرى تعود إلى المعنى نفسه.

وإذا كان للحذف طريقتان، إحداهما تهتم بالحذف النحوي، والثانية تقرنه بالوظيفة الجمالية، فإن له أهمية بالغة عند علماء النص في استكمال تشكيل النص بوصفه وسيلة هامة من وسائل تماسكه، بفضل متلق متطور قادر على الفهم، ومعرفة خصائصه ومن بينها ألوان الحذف التي تعتور النص كله.

ونخلص في ضوء ما سبق إلى أن الحذف لا يمكن أن يؤدي دوره في الدلالة، والتأثير إن لم يدل عليه الدليل الذي أشار إليه ابن جني والرماني والقاضي عبد الجبار، والحذف بوصفه بؤرة إنتاج المعنى يفسح المجال رحبا للمتلقي لاستكمال تشكيل النص، عبر التأويل وتخيل صور واحتمال دلالات عديدة، على غرار ذكر المحذوف الذي يُنبِتُ الدلالة، ويحدد أبعادها ويحصر غناها وشرائها.

وبناء على ما سلف تكون الدراسات الحديثة قد أثبتت أن أسلافنا العرب قد امتلكوا قامات عالية في دراساتهم النحوية والبلاغية لأساليب العربية، ولا يقل عنهم شأنًا علماء التفسير؛ ولهذا كان علينا أن نستلهم، هذا التراث بحمولته الثقافية والمعرفية، ونحاول تفسيره في ضوء انشغالات تفكيرنا الراهن مع استثمار المفاهيم والأدوات المعرفية في الفكر الغربي استثماراً قائماً

على التفاعل الإيجابي، وذلك لإضاءة جوانب كثيرة في الدراسات اللسانية الحديثة.

إذا كان علم لغة النص (Linguistique du texte) فرعاً من فروع علم اللغة، فإن نحو النص قد تفرع من علم اللغة النصي الذي يهتم بدراسة النص بوصفه أفعال اللسان، وذلك لدراسة زوايا متعددة فيه، ولعل من أهمها التماسك النصي ووسائله والمرجعية (الإحالة) (Référence) والسياق ودور المتلقي.

وتعد ظاهرة الحذف في منظور هذا الاتجاه الجديد وسيلة هامة من وسائل التماسك بشقيه: الشكلي والدلالي، وهذا ما نرغب فحصه وتتبعه فيما تبقى من هذا المقال.

وقد دفعنا هذه الرؤية إلى ضرورة توضيح مفهوم الإحالة وأهميتها في تماسك النص وعلاقتها بالحذف؛ وذلك لأنه وسيلة أساسية في تناسق أجزاء النص، التي تعتبر في نظر هاليداي ورقية حسن متتالية من الجمل تربطها علاقات، أو تربط بعض عناصر هذه الجمل، أي هذه العلاقة تكون بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو أخرى لاحقة، أو بين عنصر وبين متتالية بكاملها سابقة أو لاحقة، فإذا تعلق عنصر بما سبقه فهي علاقة قبلية، أما إذا تعلق بعنصر يلحقه فهي بعدية،¹ ويمكن توضيح ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾²، والتقدير: أنزل خيراً، فحذف الفعل مع فاعله في جواب الاستفهام، ويمكن تمثيل الآية كما يأتي:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾

1 - ينظر لسانيات النص -مدخل إلى انسجام الخطاب-: محمد الخطابي، ص 13.

مرجعية قبلية (سابقة) أنزل

2 - سورة النحل/30.

الملاحظ أن المحذوف مفعول واقع في جواب الاستفهام (ماذا) بدليل كلام مذكور سابقا، إذن هنا المرجعية قبلية دلّ عليها سياق الكلام، والمحذوف في الآية الكريمة يدل على التماسك الداخلي بين جملة الاستفهام وجوابها، ومنه -أيضا- قول الشاعر¹:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا * عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ

والتقدير: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض، ويمكن تمثله بهذا الشكل:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا (.....) = نحن (مبتدأ) + بما(جار ومجرور) + (الخبر المحذوف)

وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ = أنت (مبتدأ) + بما(جار ومجرور) + راض (الخبر المذكور)

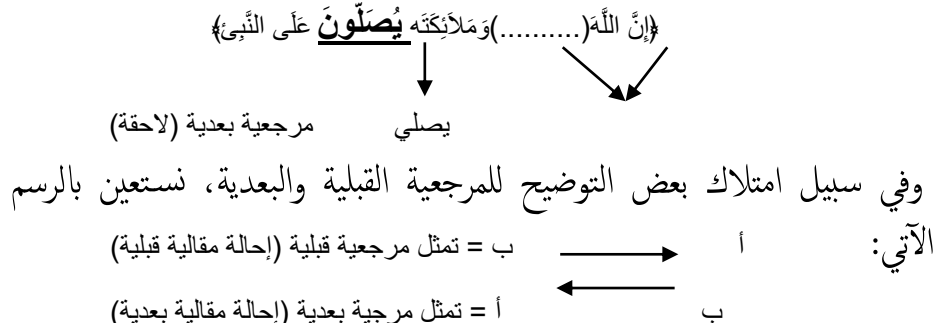
وكما هو واضح في الشاهد فإن التماسك قد تحقق بين الشطرين، وذلك لدلالة المذكور اللاحق على السابق المحذوف، أو من " الإبدال من الصفر"² حسب مفهوم هاليداي ورقية حسن، ومن خلالها نفهم ما أراد الشاعر رسمه للمتلقي؛ لأن البنية الكلية للبيت الشعري هي متتالية جمالية وليست شيئا معطى، وإنما يحتاج إلى وسيلة ملموسة توضحه وتجليه حسب رأي فان دايك.³ أما المرجعية البعدية ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى

1 - قيس بن الخطيم (ت 2ق.هـ/620م) بن عدي الأوسي، أبو يزيد، شاعر الأوس وأحد رجالها الصناديد في الجاهلية.

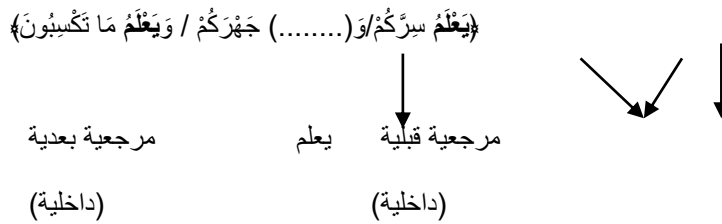
2 - ينظر لسانيات النص-مدخل إلى انسجام الخطاب-: محمد الخطابي، ص21.

3 - ينظر النص والسياق-استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة، عبد القادر قنيني، دط، سنة2000م، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب- ص

النَّبِيِّ¹، والتقدير: إن الله يصلي في قراءة من رفع "ملائكته"، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه وليس عطفا عليه²، ويمكن تمثل الآية كما يأتي:



ويوضح هذا الرسم مرجعية الحذف الذي يعتور البنى اللسانية سواء أكانت سابقة أم لاحقة، أي إذا اشتملت متتالية جمالية على حذف، فلا بد من مرجعية توجه المتلقي إلى موضعه، ومن ثم فهمه اعتمادا على السياق. ونجد بعض الآيات القرآنية الكريمة تتوافر فيها مرجعتان قبلية وبعدية، ومنها قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾³، والتقدير: ويعلم جهركم، فحذف الفعل والفاعل لدلالة السابق واللاحق عليه، فالمرجعية هنا مشتركة بين القبلية والبعدية، وتمثلها كالآتي:



ونلاحظ في هذه الآية حذف الفعل مع فاعله، والدليل مقالي من لفظ المحذوف، وقد تنوعت المرجعية وذلك لتقوية الربط بين السابق واللاحق

1 - سورة الأحزاب/56.
2 - ينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج3/133.
3 - سورة الأنعام/3.

وبين ما لم يذكر (الفعل وفاعله) الواقع بينهما، ومن ثم توجه المتلقي إلى فهم النص القرآني فهما صحيحا، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا توصل إلى تقدير الكلام المحذوف (المغيب) من خلال الكلام المظهر، باعتبار هذا الأخير مرشدا وموجها.

وإذا كان الحذف يحقق التماسك بين عناصر الآية الواحدة، أو بين عناصر أكثر من آية، اعتمادا على المرجعية الداخلية، فإنه يحقق التماسك بين أكثر من سورة اعتمادا على المرجعية الخارجية، مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يُنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾¹، والتقدير: (يَأْتِي أمر رَبُّكَ)، بدليل قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿هَلْ يُنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾² فدلّ على المحذوف سياق الآية، وأكدت آية من سورة النحل³.

وبالإضافة إلى مساهمة هذا الحذف في تناسق النص وتماسكه اعتمادا على المرجعية الخارجية اللاّحقة⁴، فإنه أدّى وظيفة أخرى، إذ أفاد حقيقة وهي أن الانتقال والإتيان من مكان إلى آخر صفة من صفات الأجسام التي تشغل حيزا، وأنّ الله عزّ وجلّ خالق الأماكن والأزمنة، ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقلة والتمكن والسكون والانفصال والاتصال والممارسة والمحاذاة⁵، فلا يجوز لله سبحانه وتعالى الإتيان كما بينه الجرجاني في أسرارهِ، وكذلك

1 - سورة الأنعام/158.

2 - سورة النحل/33.

3 - ينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج3/114.

4 - تكون المرجعية الخارجية لاحقة أو سابقة في أي القرآن الكريم وفق ترتيبه المصحفي.

5 - ينظر أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص339-340.

أمره لا يمكنه المجيء إلا على وجه مجازي؛ لأن الأمر يصدر ويُفقد ويُطبَّق ولا يأتي.

لقد تركت العناصر المحذوفة من الآية السابقة فجوة، ممّا يثير المتلقي (متلق خبير)¹ ويدفعه إلى التّمعّن والتدبر بغية سدّ الفجوة وملئها، وتحديد العناصر غير المحددة، وهذا العمل هو الذي قام به المفسرون، فتوصلوا إلى أن سرّ الحذف -فضلا على التماسك- يكمن في التأكيد على صدور الأمر، كونه قدرا مقضيا، أما الإتيان فأفاد حتمية وقوعه وتجسيد نفاذه فورا حتى شخّص وكأنه آتٍ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾²، أي: كعرض؛ بدليل التصريح به في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾³، إنّ العلاقة بين الحذف والمرجعية واضحة، الأمر الذي يؤكد أهمية الحذف في تحقيق التناسق النصي، أضف إلى ذلك أن "تفسير القرآن بالقرآن يعد من أصول التفسير، بل يعد أول هذه الأصول"⁴ والحذف عند هاليداي ورقية حسن يرتبط بمرجعية داخلية أو خارجية، سابقة أو لاحقة توضحه في قولهما: "إن الحذف بطبيعته علاقة مرجعية لما سبق (Anaphorique)... وأحيانا يكون الحذف مرجعيته خارجية (Exophorique) والأخيرة تعتمد على سياق الحال الذي يمدنا بالمعلومات التي تسهم في تفسير المثال. لكن الحذف المرجعي للخارج-خارج النص- ليس له مكان في التماسك"⁵، ويمكن توضيح فحوى هذا الكلام بالرسم التالي:

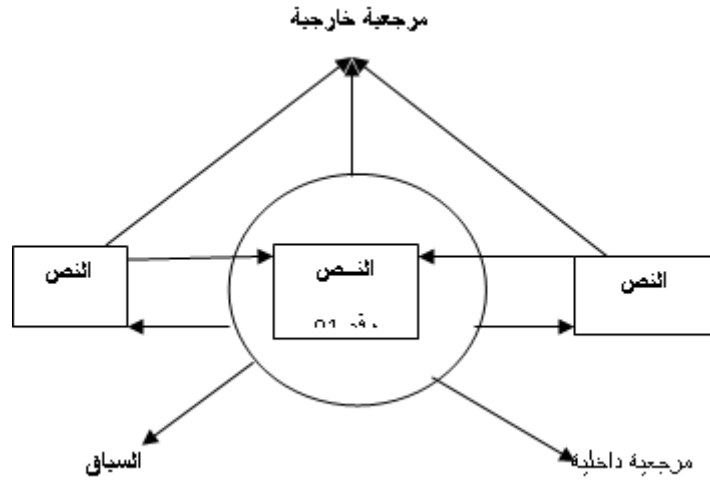
1 - المقصود بالمتلقي الخبير المفسر الفاهم والعارف الذي تتوافر فيه شروط المفسر.

2 - سورة آل عمران/133.

3 - سورة الحديد/21.

4 - علم اللغة النصي- دراسة تطبيقية على السور المكية-: د. صبحي إبراهيم الفقي، ج2/179.

5 - المرجع نفسه 201/2، و. Cohesion in English, halliday and hassan, p144.



وينهض تماسك النص على عناصر هامة في نظر الباحثين، وتتمثل حسب الرسم المبين في المرجعية الداخلية، وتكون إما سابقة أو لاحقة، والمرجعية الخارجية، وينضاف إليهما السياق.

وظيفة الحذف النصية : يأتي القرآن الكريم في الذروة من البيان العربي، فهو كتاب العربية الأكبر، الذي يشكل آياته وسوره بنية نصية كلية، وأصفي قول نستشهد به في هذا المقام للإمام علي كرم الله وجهه: "كتابُ الله تُبَصِّرُونَ به، وتَنطِقُونَ به، وتَسْمَعُونَ به، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بَبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، لا يَخْتَلِفُ فِي الله، ولا يُخَالِفُ بِصاحبه عن الله."¹

¹ نهج البلاغة-من كلام الإمام علي كرم الله وجهه، شرح الشيخ محمد عبده، د.ط، سنة 1986م، دار أسامة، بيروت-لبنان-ج2/17.

وقد كان إعجازه البياني موردا متأسلا من موارد إعجازه الكلي، فلا غرابة أن يكون القرآن الكريم مصدرا لكل ما توصل إليه علماء لغة النص، أو كما يطيب للبعض أن يطلق عليه نحو النص، وأصلا لتفجير طاقات كثيرة من هذا العلم، المنعوت بالمنعطف الجديد، حتى يفيد هاليداي وحسن منه، ويغيرا ما أقرّاه بخصوص عدم تحقيق التماسك بالحذف والمرجعية الخارجة¹ (Exophoric)؛ لأنّ ما أوردناه من آيات قرآنية قد أثبت عكس ذلك تماما، وحقق الحذف التماسك والاتساق بين أكثر من سورة، ويحضرنا في هذا الشأن قول الإمام علي-كرم الله وجهه-: "إنّ القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائب²"، والحقيقة إن الحديث عن القرآن ذو شجون وفنون، لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائب، ولا تبلغ مراميه.

وفي ضوء هذا الطرح أين نضع قول هاليداي ورقية حسن: " لكن الحذف المرجعي للخارج - خارج النص - ليس له مكان في التماسك"؟³ وتقتضي الإجابة عن هذا السؤال من أبناء اللغة العربية الرجوع إلى الإسهامات النصية العربية، وإعادة قراءتها للإفادة منها؛ لأن ما خلفه المفسرون من أعمال في دراسة وتفسير آي القرآن الكريم، تكشف عن وجود مثل هذه المفاهيم

1 - أي أن الحذف في نظر هاليداي ورقية حسن لا يحقق التماسك النصي اعتمادا على المرجعية الخارجية والسياق.

2 - نهج البلاغة - من كلام الإمام علي كرم الله وجهه، ج1/55.

3 - علم اللغة النصي - دراسة تطبيقية على السور المكية-: د. صبحي إبراهيم الفقي، ج2/179.

في أذهانهم وهم يمارسون تلقي أي القرآن الكريم وما توصلوا إليه من نتائج، يشكل اليوم مرتكزا معرفيا هاما يعول عليه في دفع عجلة بحوث لسانيات النص، وكذا تطوير النظريات اللغوية المعاصرة وبخاصة تلك التي تقوم على التحليل النصي.

ومن المسلمات إذن القول إن النص القرآني متماسك، وينبغي ذلك؛ لأنه كلام الله الذي يأتي في ذروة البيان، الأمر الذي جعل "السيوطي يبرهن برهنة دقيقة على مقولة مشهورة لدى العلماء المسلمين وهي أن القرآن الكريم كالكلمة الواحدة يفسر بعضه بعضا"¹، لكن كنا نروم في تتبع أي القرآن الكريم توضيح كيف يساهم الحذف في تحقيق التناسق، وكشف الأساس النظري الذي ينهض عليه في هذا المجال.

¹ - لسانيات النص- مدخل إلى انسجام النص-محمد خطابي، ص388.